قالت هلم إلى الحديث فقلت لا...

للأستاذ احمد الشايب
المدرس بكلية الآداب

— ١ —

قال الراوي : كانت السنة الثامنة منذ هاجر الرسول عليه السلام من مكة إلى المدينة ، وكان صُلح الحُدَيبية الذى يقف الحرب بين المسلمين والمشركين سنوات عشرا يقطع عامه الثانى ، ويتيح لقريش فى مكة فرصة التروّى لعلهم ينجون بكرامتهم وحياتهم من هذه الدعوة المحمدية ، والنصرة الإلهية . وكان المسلمون فى المدينة ، مهاجرين وأنصارا ، يستبعدون مدى هذه الهدنة ، ويعدونها نيلاً من عزتهم الدينية ، وقد علموا « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخُلُن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين » وما كان لهم أن ينقضوا عهداً فى أعناقهم أو يفكوا عقداً للرسول باذن الله تعالى . ولكن الله قدر وقضى — لتصدق الرؤيا توًّا ويكون الفتح المبين — أن تغدر قريش ؛ فقد ثار بنو بكر ابن كنانة على خُزاعة ، وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له الوتير يطلبونهم بدماء قديمة ، وكانت قريش ترفد بنى بكر بالسلاح ، وتقاتل معهم خزاعة مستخفين بالليل حتى جاوزوا خُزاعة إلى الحرم . فلما انتهوا إليه قال بنو بكر لزعيمهم : يا نوفل ، إنا قد دخلنا الحرم ، إلهَكَ ! إلهَكَ ! فقال : كلمة عظيمة : لا إلهَ لَه اليومَ ! يا بنى بكر أصيبوا ثأركم ، فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟ !

قال الراوى : فلما تظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ونقضوا ما كان بينهم وبين الرسول من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة ، وكانوا فى عقده وعهده ، خرج عَمرو بن سالم الخزاعى ، ثم أحدُ بني كعب ، حتى قدم على الرسول المدينة ، فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهراني الناس فقال :

إن قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكَّدا
فانصر هداك الله نصراً أعْتدا. وادْعُ عبادَ الله يأتوا مَدَدا

فقال رسول الله : نُصرتَ يا عَمرو بن سالم . ثم عرض لرسول الله عَنان من السماء ، فقال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب . ثم خرج بُدَيل بن وَرْقاء فى نفر من خزاعة حتى قدموا على الرسول المدينة فأخبره بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس : كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد في المدة ! ومضى بُدَيل بن ورقاء وأصحابه حتى لقوا أبا سفيان بن حرب بعسفان قد بعثته قريش إلى الرسول ليشد العقد ويزيد فى المدة ، وقد رهبوا الذى صنعوا . فلما لقى أبو سفيان بُديل بن ورقاء قال : مِن أين أقبلت يا بديل ؟ وظن أنه قد أتى الرسول . قال سيّرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى . قال : أو ما جئت محمداً ؟ قال : لا . فلما راح بُديل إلى مكة قال أبو سفيان : لئن كان جاء بُديل المدينة لقد علف بها النوى ، فأتى مبرك راحلته فأخذ من بعرها فَفتَّهُ فرأى فيه النوى ، فقال : أحلف بالله لقد جاء بُديل محمداً

ثم خرج أبوسفيان حتى قدم على رسول الله المدينة ، فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فلما ذهب ليجلس على فراش الرسول طوته عنه . فقال : يا بُنية ، ما أدرى أرغبتِ بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله وأنت رجل مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش الرسول . قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر . ثم خرج حتى أتى الرسول فكلمه فلم يرد عليه شيئاً . ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم له رسول الله ، فقال : ما أنا بفاعل . ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه فقال : أأنا أشفع لكم إلى الرسول ؟ ! فوالله لو لم أجد إلا الذَّر لجاهدتكم به . ثم دخل على علىّ بن أبى طالب وعنده

فاطمة بنت رسول الله وعندها الحسنُ بن على يدب بين يديهـا ، فقال : يا على إنك أمسُّ القوم بي رَحِماً وإنى قد جئت فى حاجة فاشفع لى إلى رسول الله ، فقال : ويحك يا أبا سفيان ! والله لقد عزم الرسول على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال : يا ابنة محمد ، هل لك أن تأمرى بُنيّك هذا فيُجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت : والله ما بلغ بنيّ ذاك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ فانصحنى . قال : والله ما أعرف لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ، ولـكنك سيدُ بنى كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال : أوترى ذلك مغنياً عنى شيئا ؟ قال : لا والله ما أظنه ، ولـكنى لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان فى المسجد فقال : أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس ، وركب بعيره وانطلق . فلما قدم على قريش ، قالوا : ما وراءك ؟ فقص عليهم ما جرى ، فقالوا : ذلك لا يغنى شيئاً ، قال : ما وجدت غير ذلك

— ٢ —

قال الراوى : وأمر رسول الله صلى الله عليـه وسلم الناس بالجهاز وأمر أهله أن يجهزوه . فدخل أبو بكر على ابنته عائشة زوجة الرسول ، وهى تحرك بعض جهازه عليه السلام ، فقال : أى بنية، أأمركم رسول الله أن تجهزوه ؟ قالت : نعم فتجهز . قال : فأين ترينه يريد ؟ قالت : والله ما أدرى . ثم إن الرسول أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتهيؤ وقال : اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى تبغتها فى بلادها . فلما أجمع السير إلى مكة كتب حاطبُ بن أبى بَلْتَعةَ اللخمى كتاباً إلى قريش يخبرهم أن الرسول إليهم سائر ؛ ثم أعطاه امرأة وجعل لها جُعلاً على أن تُبلغه قريشاً فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها وخرجت به . ولـكن الخبر قد أتى الرسول من السماء بمـا صنع حاطب ، فبعث علىّ بن أبى طالب والزبير بن العوّام فأدركا المرأة فالتمسا الـكتاب فى رحلها فلم يجدا شيئاً . فقال لها على : إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله ، ولتخرجن لنا هذا الـكتاب أولنكشفنك . فلما رأت الجد منـه قالت : أعرض ، فأعرض فحلّت قرون رأسها فاستخرجت الـكتاب منه فدفعته إليه ، فلما أتى به الرسول دعا حاطبا ، فقال : يا حاطبُ : ما حملك على هـذا ؟ فقال : يارسول الله أمّا والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ماغيرت ولابدلت ، ولـكنى صانعت القوم لأهل وولد لى بين أظهرهم . فقال عمر ابن الخطاب : دعنى فلأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق . فقال الرسول : وما يدريك يا عمر ، لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفره واستخلف على المدينة كلثوم بن حصين الغفارى . وخرج لعشر مضين من رمضان ، فصام وصام الناس معه ، حتى إذا كان بالـكديد بين عسفان وأمج أفطر ؛ ثم مضى حتى نزل مَرّ الظهران — فى عشرة آلاف من المسلمين — وهو واد قرب مكة ، وقد عميت الأخبار عن قريش ، فلا يأتيهم خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدرون ما هو فاعل

وخرج فى تلك الليـالى أبو سفيان بن حرب ، وحكيم بن حزام ، وبديل بن ورقاء ، يتحسسون الأخبار ، وينظرون هل يجدون خبراً أو يسمعون به ! وكان العباس بن عبد المطلب قد لقى الرسول ببعض الطريق مهاجراً بعياله ، وكان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقايته والرسول عنه راض . قال العباس فقلت : وا صباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة دون أن يأتوه فيستأمنوه ، فهو هلاك قريش إلى آخر الدهر . قال : فجلست على بغلة رسول الله البيضاء فخرجت عليها حتى جئت الأراك لعلى أجد من يأتى مكة فيخبرهم بمكان الرسول ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة . قال : فوالله إنى لأسير عليها وألتمس ما خرجت له إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان ، وأبو سفيان يقول له : ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً ، فيقول بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب ، فيقول أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هـذه نيرانها وعسكرها . قال العباس : فعرفت صوته ، فقلت : يا أبا حنظلة ، فعرف صوتى فقال : أبا الفضل ؟ قلت : نعم . قال : مالك فداك أبى وأمى ؟ ! قال ، قلت : ويحك يا أبا سفيان ! هذا رسول الله فى الناس ، وا صباح قريش والله ! قال : فما الحيلة ؟ قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى

آتى بك رسول الله فأستأمنه لك . قال : فركب خلفي ورجع صاحباه ، فجئت به كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا رأوا بغلة الرسول وأنا عليها ، قالوا : عم رسول الله على بغلته ؛ حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال : من هذا ؟ وقام إليّ ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد . ثم خرج يشتد نحو الرسول فلاحقته إليه ، فقال : يارسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد فدعنى فلأضرب عنقه . فقال العباس : إنى قد أجرته يارسول الله . فقال الرسول: يا عباس إذهب به إلى رحلك فإذا أصبحت فائتنى به . قال : فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله فلما رآه قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إلـه إلا الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إلـه غيره لقد أغنى عنى شيئاً بعد . قال : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه والله فان فى النفس منها حتى الآن شيئاً . فقال له العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تُضرب عنقك . قال : فشهد شهادة الحق فأسلم . قال العباس : قلت يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر فاجعل له شيئاً . قال : نعم ، مَن دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومَن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . فلما ذهب ليتصرف قال الرسول : ياعباس احبسه بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها . قال : فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي حيث أمرنى رسول الله أن أحبسه ، ومرت القبائل على راياتها كلما مرت قبيلة قال : يا عباس من هذه ؟ فأقول سُلَيم ، فيقول مالى ولسُلَيم ؟ ثم تمر القبيلة فيقول ياعباس مَن هؤلاء ؟ فأقول مُزينة ، فيقول : مالى ولمزينة . حتى مرّ الرسول فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يُرى منهم إلا الحدق من الحديد . فقال سبحان الله يا عباس مَن هؤلاء ؟ قلت : هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار . قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيما . قال العباس : قلت يا أبا سفيان إنها النبوة . قال : فنعم إذن . قلت : النجاء إلى قومك . فلما جاءهم صرخ بأعلى صوته : يامعشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به . وأذاع فيهم ما جعل له الرسول ثخراً ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد آمنين

— ٣ —

قال الراوى : إن أسماء ابنة أبى بكر قالت : لما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى طوى عند مكة قال أبو قحافة — والد أبى بكر وكان كفيف البصر — لابنة له من أصغر ولده : أى بُنيَّة اظهرى بى على أبى قُبيس . قالت : فأشرفت به عليه فقال : ماذا ترين يا بنية ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً . قال : تلك الخيل . قالت : وأرى رجلاً يسعى بين يديه ذلك السواد مقبلاً ومدبراً . قال : ذلك الوازع الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : قد ، والله دفعت الخيل فأسرعى بى إلى بيتى . فانحطت به الفتاة وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته . قالت : وفي عنق الجارية طوق من ورق فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها ، فلما دخل الرسول مكة ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده . فلما رآه الرسول قال : هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ! قال أبو بكر : يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت . قال : فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره ، وقال له : أسلِم فأسلَم . ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشد الله والاسلام طوق أختى ! فلم يجبه أحد فقال : أى أُخَيَّة احتسبى طوقك . ثم فرق الرسول جيشه من ذى طوى ، فدخلت فِرقه مكة من نواحيها ونزل الرسول بأعلى مكة وضربت له هناك قبة

وكان صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عُمر ، قد جمعوا أناساً بالخَنْدَمة — جبل بمكة — ليقاتلوا المسلمين . وكان حماس بن قيس من بنى بكر يُعِدُّ سلاحا قبل دخول الرسول . فقالت له امرأته : لماذا تُعد ما أرى ؟ قال : لمحمد وأصحابه . قالت : والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وأصحابه شيء . قال : والله إنى لأرجو أن أُخدمَك بعضهم . ثم شهد الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة وأناس من المشركين فهزمتهم رجال خالد بن الوليد ، فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته ، ثم قال لامرأته : أغلقى علىّ بابى . قالت : فأين ما كنت تقول ؟ فقال : إنك لو شهدتِ يوم الخندمهْ إذْ فر صَفوانُ وفر عكرِمهْ

وابو يزيد قائمٌ كالوَتَـدْ[1] واستقبلتهم بالسيوفِ المسلمهْ
يَقطعن كلَّ ساعدٍ وجُمجمهْ ضرباً فلا يسمعُ إلا غمغمهْ[2]
لهمْ نهيتٌ[3] خلفنا وهَمهمهْ لم تنطِقِ فى اللوْم أدنى كلمهْ

* * *

لما نزل الرسول مكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجَن فى يده . فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له ، فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها. ثم وقف على باب الكعبة فقال : « لا إله إلا الله ، وحدَه لا شريك له ، صَدقَ وعدَه ، ونصرَ عبدَه ، وهزم الأحزابَ وحده . ألا كلُّ مأثرة أو دم أو مال يُدعى فهو تحت قدميَّ هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج إلا وقتيلَ الخطإ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مُغلَّظةً ، مائة من الابل . أربعون منها فى بطونها أولادها . يا معشر قريش ، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظُّمها بالآباء . الناس من آدم ، وآدم من تراب . « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » ثم قال : يا معشر قريش ؛ ما ترون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء . ثم جلس رسول الله فى المسجد فقام اليه على بن أبى طالب ، ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يارسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال الرسول : أين عثمان ابن طلحة ؟ فدُعِىَ له ، فقال : هاتِ مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء

قالوا : لما دخل عليه السلام البيت يوم الفتح رأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصوّراً فى يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ! جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ! ما شأن ابراهيم والأزلام ؟ ! « ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » . ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست . وكان يقول وهو يشير إليها : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً »

قال الراوى : أراد فضالة بن عمير بن الملوّح الليثى ليقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت عام الفتح ، فلما دنا منه قال الرسول : أفضالة ؟ قال : نعم فضالة . يا رسول الله قال : ما ذا كنت تحدث به نفسك ؟ قال : لاشىء.. كنت أذكر الله عز وجل . فضحك النبي ، ثم قال : أستغفر الله ! ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده من صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلىّ منه . قال فضالة : فرجعت إلى أهلى فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها ، فقالت : هلمّ إلى الحديث ، فقلت : لا ، وانبعث فضالة يقول :

قالت : هلم إلى الحديث فقلت : لا يأبى عليك الله والإسلام
لو ما رأيتِ محمداً وقبيلهُ بالفتح يوم تُكسر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيِّناً والشرك يغشى وجهه الاظلام

قلت : هذه صفحة من أمجد صحف الاسلام ديناً ، وخلقاً ، وسياسة ، وأدباً ، وحماسة ، ليس لى فيها إلا تخليصها من أطواء السيرة ، وعرضها بأسلوبها ، لعل فى الذكرى نفعاً :

وإذا فاتك التفاتٌ إلى الما ضى فقد غاب عنك وجهُ التأسّى

أحمد الشايب

(١) الوَتَد : اسطوانة (٢) الغمغمة : أصوات غير مفهومة من اختلاطها (٣) النهيت : صوت الصدر

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الأديب

أبى العلاء المعرى

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ أسبوع

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد

ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة

ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة